

لماذا لا يهتم الغرب بما نكتب

مخيف أن تكون رواية «أولاد حارتنا» وبقية روايات محفوظ هي الاستثناء



نجيب محفوظ نقل أحياء القاهرة إلى قارئ عربي

عربي ينقل لغته إلى لغة بلد الإقامة. مخيف أن تكون رواية «أولاد حارتنا» وبقية روايات محفوظ هي الاستثناء. مخيف بنفس المستوى أن لا نصل إلى السبب لفهم كل هذا الانقطاع عن الوصول إلى العالمية.

من المثقفين العرب في المهجر على مدى عقود من دون أن يكلفوا أنفسهم تعلم لغات أوطانهم الجديدة. كانوا هم الأكثر قدرة على نقل إحساس الكاتب إلى عالمهم الجديد. تصبح محباً لترجمة غوغل الآلية الركيكة عندما تقرأ ترجمة لترجم

بترجمون ويحملون الكلفة ويراهنون على المكتبات العامة وعلى التزام من المؤلف أن يشتري عدداً معقولاً من النسخ. هذه تنتمي إلى أعمال الصدقة. نقض المترجمين أيضاً مشكلة. من الصعب العثور على تفسير لتواجد الآلاف

وصولا إلى تراجع استثنائي في عدد المترجمين من العربية إلى لغات أخرى. سارت كل التفسيرات لأصحابها. ساستمسك بفكرة السوق. لو وجدت السوق للإنتاج العربي الأدبي والشعري والمترجم، لكان هناك من يهتم ويترجم. ولانعدام السوق ثمة أسباب نفسية وثقافية وما يتعلق بمستوى الإبداع. السبب السياسي لصالح المنتج الأدبي العربي المترجم لأن العالم يريد أن يفهم ما يدور في عقل العربي ولماذا كل هذا الغضب من نفسه وعلى الآخرين.

فلنأخذ أعمالاً تمت ترجمتها بعد أن فازت بجوائز ثقافية وأدبية عربية. تتم الترجمة كجزء من احتفاء المؤسسات المانحة بالعمل الفائز. وهي بالعموم مؤسسات غنية تتبع دولا ثرية. لا تكتفي هذه المؤسسات بالترجمة، بل حريصة على الحضور في كل معارض الكتب العالمية، من فرانكفورت إلى لندن. الطباعة فاخرة والترجمة جيدة والتسويق حاضر. ولكن النتيجة ضعيفة. ينتهي الأمر بإهداءات هنا وهناك، وتحثير المؤسسات المشاركة في المعارض في النسخ الباقية وكيفية إعادة شحنها. ثمة مشكلة حقيقية.

صدمة المحلية

الأمر ليس محصوراً بالترجمة إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية. هذه لغات مغرورة لأسباب تاريخية. نفس المشكلة تنكرر مع الإسبانية. قارة ونصف من دول العالم الثالث تتحدث الإسبانية. من حدود تكساس وفلوريدا وأريزونا وكاليفورنيا في الولايات المتحدة مروراً بأمريكا الوسطى اللاتينية.

مئات الآلاف من شعوب بمئات الملايين من الفقراء والبسطاء الناطقين بالإسبانية سيكونون مهتمين بمطالعة ما يكتبه مسحقون مظلومين باللغة العربية. تنصدم بعد ما ترجم وما نشر أو بيع بالإسبانية في تلك الدول. تنصدم أكثر عندما تعرف أن عشرات الملايين من مواطني هذه الدول هم من أصول عربية هاجروا أو هاجر أبائهم وأجدادهم على مراحل وصاروا ناطقين بالإسبانية. الفضول موجود، لكن الإنتاج الأدبي العربي وترجمته هما المشكلة.

ينبغي أن نشير إلى مترجمين غربيين «فدائين» وناشرين أكثر فدائية.

تقريباً عدا نجيب محفوظ لم يحقق كاتب عربي انتشاراً عالمياً كبيراً. قد تتعدد الأسباب ويتفاقم معها الجدل، ولكنها تبقى ظاهرة محيرة وملبية بالفارقات، فمثلاً ازادت ترجمات الأدب العربي إلى اللغات الأخرى، ولو بنسب بطيء، لكنها لم تحقق النجاح والانتشار المطلوبين، رغم أن العوالم العربية مغرية لجل قراء العالم لاكتشافها. إنها معادلة معقدة تحتاج إلى تفكيك صارم وجاد.

القدرة الوصفية للروائي كانت متينة حتى عندما تنقل أعماله إلى لغة أخرى. هذا ما جعل من الوارد الإقبال على ترجمة محفوظ مبكراً.

هل أفادته الترجمة للوصول إلى نوبل؟ لا شك أنه كان لها دور. ولكن لو نتخيل أن رواياته كانت ضعيفة وركيكة. ماذا يوسع المترجم أن يفعل لها حتى لو كان مأموراً بترجمتها؟ المثل الإنجليزي يصف هذا النوع من الأعمال ببساطة. يتخيل عملية الترجمة بصندوق ميكانيكي أو إلكتروني. «غث يدخل.. غث يخرج».

نهم للترجمة

الغرب نهم لترجمة الأعمال من لغات أخرى. نهم متبادل بين اللغات الأوروبية، ونهم حاضر للترجمة من اللغات الأخرى خصوصاً من شرق آسيا وشبه القارة. ثمة سوق حقيقية لهذا الإنتاج الأدبي. حتى من دون نوبل، تستطيع روايات صينية ويابانية وهندية وتركية أن تسجل حضورها الملموس في عالم الأدب المترجم. شعر الهابكو صار يقبل غربياً (وعربياً) بسبب الترجمة.

الآلاف من المثقفين العرب في المهجر كانوا قادرين على تعلم اللغة ونقل إحساس الكاتب إلى عالمهم الجديد

إلا العربية. لا تنتهي شكاوى الأدباء والشعراء العرب من إهمال العالم لهم وعدم ترجمة أعمالهم. وترجم النقصيات. من تراجع المستوى لإنتاج الأدباء والشعراء، إلى المؤامرة لمنع وصول «الإبداع» إلى اللغات الأخرى.

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

أحب أن تتعرفوا على البروفيسور ريتشارد فينتر. هو أستاذ هندسة منظومات السيطرة المثالية في جامعة بريطانية مهمة. في منتصف عام 1989، كان لدي موعد معه لمناقشة شأن بحثي. غرف الأساتذة في الجامعات البريطانية تخلو من أي فخامة وصغيرة نسبياً. أكوام من الأوراق البحثية ومكتبة جانبية لأهم الكتب في تخصصه، ومنها كتبه، وعدد من كتب قراءاته الخاصة. لفت نظري الكتاب أعلى المجموعة، لأنها مكتسة على جانب المكتبة. كان رواية نجيب محفوظ «زقاق المدق». نسيت البحث وانطلقت أتحدث عن نجيب محفوظ الذي فاز قبل أشهر بنوبل للأدب. اكتشفت أن فينتر قرأ عدداً من روايات محفوظ من قبل نوبل. روايات محفوظ المترجمة فيها ما يقرأ. إذا أسعفتني الذاكرة فإن «زقاق المدق» ترجمت في الستينات.

نجيب محفوظ الاستثناء

في طريق العودة إلى البيت دخلت إلى مكتبة محطة القطار. ذهبت إلى قسم الروايات، فوجدت عدداً معتبراً من روايات محفوظ المترجمة. المكتبات تتابع ما يحدث في عالم الأدب ولا تضع فرصة نوبل.

بعد سنوات مرت على نفس الرفوف، فوجدت أن روايات محفوظ لا تزال معروضة مما يعني أنها مطلوبة. عدد الأرفف في مكتبات محطات القطار ليس بالكبير، وهم يبقون الكتب التي تباع أكثر من غيرها. مرة أخرى استنتجت أن في روايات محفوظ المترجمة ما يقرأ. في معرض إشاراتنا بـ محفوظ، ذكرت لجنة نوبل أنه نقل الحياة في أحياء القاهرة إلى قارئ عربي تثيره مصر، رمز الشرق في مخيلة الأوروبيين.

«أزلام السلطان» متسلقون يرافقون نجوم الفن والأدب

على سفوح هذا السلطان الوعرة مناقفون، يبتكرون أصنافاً هجينة من الفقاك لتغذية روح النجومية في ذات السلطان/ النجم وإرضاء نزواته العابرة. يلبعون دور الدمى العمياء التي تجتهد بكل ما أوتيت من حيلة كي يرضى عنها ويبقيها في حضارته، وهم يخرجون على الملأ ويقدمون أنفسهم بوصفهم أصدقاء السلطان/ النجم، وعلى درجة مناسبة من الكفاءة والتواضع مع شخصيته، ويدركون كم هم مجرد تبع وحاشية وظلال وفضلات لا قيمة حقيقية لهم خارج ما يجتهدون في ابتكاره من خدمات للسيد. لا يزول الغطاء الحديدي الضاغط على هاماتهم إلا حين يموت سلطانهم فتظهر حجوم رؤوسهم والوان شعورهم وعيوبها، وتطفو مضمراتهم على السطح وتبدأ بالنتنطع والاندعاء والخوض في التفاصيل التي لا يعرفها أحد عن النجم الغائب سواهم، وكأنها أسرار خاصة أودعها إياها تعبيراً عن تلك الصداقة التي سيجتهدون في تكبيرها وتوسيعها كما يشتهون، في مزادات تافهة لا تغنيهم من جوع ولا تنفي تقصهم ولا تملأ فراغهم بشيء، غير أنهم يستغلون المناسبة لترويج بضاعتهم من اللحم الميت وتوسيقها بما يشبه السرقة أو الكسب غير المشروع بصفاقة وقلة ذوق.

المقرب يروي فيها كسراً من يوميات أو ذكريات أو غيرها، ويسرب من بين سطورها أخباراً أو ادعاءات أو محكيات يحاول فيها أن يرمم شيئاً من فراغات ذاته، لكنها تظل لأغلب القراء صعوداً خائباً على سفوح وعرة لا يمكنها أن تخرم شيئاً أخضر كما يرسم أو يحاول إيهام مجتمع القراء.

المصالح الدفينة وغير السلمية والمتبادلة بين الطرفين، النجم وندماؤه أو مرافقوه، تمثل قانون هذه العلاقة الشائكة

يبقى النجم في الحسابات المعروفة كلها واحداً في ساحة النجومية التي يشتغل فيها، ويتكالب «الآخرون» على اسمال الظلال التي تتناثر منه بحسب قوة أشعة الشمس وزاوية تأثيرها، غير أن الظلال سرعان ما تختفي فينتهي «هؤلاء» وهم يحطون الليل. وإذا كانت مقولة «حريم السلطان» تعبر عن ثقافة استحواذية يهيمن فيها السلطان «مع تعدد وتنوع صور هذا السلطان، ومنها السلطان الأدبي والثقافي، على قبيلة من النساء لا هم لهم سوى إرضاء نوازع السلطان وربغياته وديكتاتوريته وفحولته»، فإن مقولة «أزلام السلطان» حاضرة في بعض مرافق ثقافتنا حيث ينتشر

وحيث يغادر النجم الدنيا وتختفي رحلاته وسفاراته وفنائه ومسارقاته وحاجاته إلى الأبد، يزيح مذ البحر «هؤلاء» بدبهم المزجج على نشاطهم فأرجو أجرد، وحين يتلمسون أنفسهم لا يجدون سوى حفنة ذكريات تركها لهم النجم ناشفة بلا ماء، فيجتهدون ما وسعهم ذلك في نفخها عليها تدن قظرات ماء من هنا وهناك، كي يؤسطروا كل قطرة منها لتصبح نهراً ضيقاً يعترمون عبوره يقارب مقبوبة.

كان النجم يستخدم «هؤلاء» لأجل استكمال لذائذه وشهوته ومُنَّعه بأشكالها المتنوعة بحسب المزاج، فلا بد من نديم يتمتع بخصائص الندامة يخضع خضوعاً تاماً للحظات النجم، ويذعن إنعائاً مطلقاً لشطحاته وثمالاته، وهو قد أتم حفظ ما يحتاجه النجم وما يروق له في كل لحظة وأن، ليخدم خدماته على النحو المطلوب والمشهود له بالالتقان والكفاءة والدقة، وليقترب خطوة أخرى نحو موطن أسرار النجم ويعرف ما لا يعرف غيره ويحتفظ به كجوهرة تسد فتورة نقصه المبين في ما بعد، وهو ما يسمح له أن يزعم صداقته للنجم أو قربه منه أو أنه مركز ثقته الذي لا يدانيه فيه أحد غيره. ومن ثم يشرع بتدوين ذكرياته أو أسرارها مع صديقه

لسد الشواغر في دائرة حاشيته المحدودة الملاك عادة. ثمة ما يمكن أن نسميه «أدعاء الحقيقة» أو «الحقيقة المذمومة»، كأن يقوم أحدهم بنشر وقائع يضع نفسه مع النجم صاحب السفح الوعرة في مقام مشترك يومه بالمساواة والمضاهاة والمحاكاة، على أساس الصحبة أو المشاركة أو التفاعل بصرف النظر عن قيمة ذلك ودرجة أهميته لشخصية الطرفين تمثل قانون هذه العلاقة الشائكة «غير الخليفة» في طبقة مركزية من طبقاتها. تمتلئ السفوح الوعرة بالمغريات التي تشجع البعض على التسلق حين يجد أن النقص الذي يعيشه قد يحتمى في حومة هذه الوعرة، ولا شك في أن السفوح الوعرة للمشاهير والنجوم هي أكثر السفوح المعروفة في الحياة والطبيعة والبشر اشتباكاً وغموضاً وخطورة، ولا سيما حين تكون هدفاً لمن يدركون أن ضعف تجاربهم لا يمكنهم من تقوية سمعتهما إلا بالتوغل في متاهة هذه السفوح، حقيقة أم ادعاء، ومحاولة التثبيث بها للفت نظر الآخرين، على أن ضعيف التجربة هذا يتوغل بسمعة النجم المشهور لملء ما لديه من فراغات، والنجم بدوره يستثمر هذا التثبيث

من أن السلطان قد يدرك عدم إخلاص هؤلاء وأنهم قناصو فرص لكنه يقبلهم لاستكمال «برستيج»ه والاستجابته لرغباته، في حين تقتنص هذه الثلة ما يتاح لها من فرص للكسب واغتنام المناسبات المفيدة وسرقة ما يمكن سرقة من أشياء السلطان الشخصية، لتسويقها في ما بعد بوصفها كنوزاً ثمينة لا تقدر بثمن، بما يجعل المصالح الدفينة «غير السلمية» المتبادلة بين الطرفين تمثل قانون هذه العلاقة الشائكة «غير الخليفة» في طبقة مركزية من طبقاتها. تمتلئ السفوح الوعرة بالمغريات التي تشجع البعض على التسلق حين يجد أن النقص الذي يعيشه قد يحتمى في حومة هذه الوعرة، ولا شك في أن السفوح الوعرة للمشاهير والنجوم هي أكثر السفوح المعروفة في الحياة والطبيعة والبشر اشتباكاً وغموضاً وخطورة، ولا سيما حين تكون هدفاً لمن يدركون أن ضعف تجاربهم لا يمكنهم من تقوية سمعتهما إلا بالتوغل في متاهة هذه السفوح، حقيقة أم ادعاء، ومحاولة التثبيث بها للفت نظر الآخرين، على أن ضعيف التجربة هذا يتوغل بسمعة النجم المشهور لملء ما لديه من فراغات، والنجم بدوره يستثمر هذا التثبيث

محمد صابر عبيد
ناقد عراقي

هل يمكن لمصطلح «أزلام السلطان» أن يعادل موضوعياً وجدلياً مصطلح «حريم السلطان» من حيث المعنى والدلالة والقيمة والمفهوم؟ وحين يذهب مصطلح «حريم السلطان» نحو الجانب الخدمي الترفيقي الذي يقدم للسلطان ما يريد وما يرغب وما يهوى، فإن مصطلح «أزلام السلطان» على هذا النحو لا يبتعد كثيراً في سياقات أخرى مشابهة عن سياقات المصطلح النظير. ولا يقتصر مصطلح «السلطان» على أفراد الطبقة الحاكمة التي تسيطر على زمام الأمور في بلد من البلدان التعيسة التي ابتليت بالديكتاتوريين، وتفرض على المحيط أحوالها وحاجاتها وربغياتها ولذائذها، بل تنتفض على كل أشكال النجومية حين يتحول النجم فيها إلى «سلطان» من نوع آخر يتمتع بفضاء سلطة النجومية والشهرة، سواء أكانت هذه النجومية «فنية» أو «رياضية» وهي الأغلب، أو «أدبية» وهي الأندر، أو أنواع أخرى من النجومية.

تتساوى الحالة لدى الجميع حين يفرض «السلطان» النجم» قوانينه على المحيط ويسعى إلى استثماره واحتلاله وفرض أجندته عليه، وثمة من يتكالبون كالبكتيريا على الصحن الدسم ويقدمون فروض الطاعة والولاء ويسبحون بحمد سلطانه ويتغنون بشخصه الاستثنائي، وعلى الرغم